الفصل الخامس

الشاعرية والذهان

(الفنان رجل يظن مجنوناً ، بينما هو في الحقيقة
رجل يسمع صوت الله من حين إلى حين)

وقفنا في الفصل السابق على عصابية الشاعر بأبعادها الأسلوبية ، وما تنطوي عليه من منطق يخالف ما عليه السواء ، ورأينا أنه ((حالة)) وليس سمة ، فهل يمكن أن يكون حالة ذهانية ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فهل توجد صلة بين شاعريته وذهانه ؟

إن الإجابة على هذا تقتضي أولاً الوقوف على مدى ((تبصره)) بعلله ، ومسئوليته عن منطقه هذا الذي يستمرئ الألم ويفلسفه ، ويقرر أن ((الفنان يظن مجنوناً بينما هو في الحقيقة رجل يسمع صوت اللّه من حين إلى حين))[١] ، وأن ((الشاعر الحقيقي طفل لم يكبر))[٢] أبداً وإنما يعيش ((بنهي طفل وإحساس صبي))[٣] وأن الهوى جعله ((عقيم الفكر[٤] ولم يبق فيه من رشد[٥])) وكلها إشارات لا تخلو من هاجس ذهاني بخاصة وقد قرر العقاد أن الشاعر مريض . غير أن تقرير ذهانية شاعر يعني أن سلوكه ينطوي على

---

(١) مجلة الفن ، العدد ٥١ / ١٩٤٩ مقال : معنى الشعر .
(٢) انظر الفصل الأول .
(٣) انظر الفصل الأول .
(٤) ديوانه / ١٧٥ / رحلة .
(٥) ديوانه / ١٤٠ / في الظلام .

اضطراب عقلي ، يجرده من الانضباط والتبصر، ويعفيه من المسئولية ويقتضي بالضرورة تدخلاً لعلاجه والحجر على تصرفاته ، فهل يكون الشاعر كذلك ؟

الواقع أن الإجابة على هذا ترتبط بالدلالة اللغوية لمادة ((شعر)) والتي تجعل العنصر الإدراكي أحد القدرات العقلية التي تميز الشاعر ((فالشعر من شعر يشعر فهو شاعر أي عالم، ومنه قولهم : ليت شعري أي ليتني علمت ، والشاعر لا يستحق هذا الاسم)) ما لم يتميز مجاله الإدراكي ((فيشعر بما لا يشعر به غيره ، ويفطن إلى ما لا يفطن إليه سواه))[٦] ، إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن الشعر ((علم)) أي قدرة عقلية قوامها العقل والإدراك والتبصر والمعرفة ، وأن الشاعر ينبغي أن يكون واعياً ، يفكر ، ويعقل ، ويفهم ويدرك ، أو بالأحرى يمتلك عقلا متبصرا ، يتسم بالفطنة والذكاء ، ولهذا كانت المقدرة العقلية أحد محاور الاقتدار الشعري ــ الطبع ، الذكاء ، الرواية ، الدربة ـ فالشعر ومضة عقلية في إطار فني ، أو بالأحرى نتاج عقلي يتسم بالإدراك والوعي والتبصر ، أو لنقل إنه عمل دماغي يقتضي الاتساق والصحة العقلية التي تجنب المتلقي صدمة الوخزة الفكرية لهذا السكون العقلي الذي ألفه ، أي أن الفكرة الصحيحة تصدر عن عقلية صحيحة، وتتضمن أيضا لغة صحيحة ، ولهذا كانت صحة المعنى مقياسا لصحة الطبع ، ومعيار للتفاضل في حلبة الموازنة[٧] . لا يعني هذا أن اللغة الشعرية ينبغي أن تقوم على اللياقة العقلية ، أو تراعي المنطق والواقع ، وتستخدم الألفاظ في معانيها المعجمية ، فالشعر تركيبة فنية لا واقعية ، إنه

---

(٦) اللسان مادة / مادة شعر .

(٧) انظر كتابنا ((مفهوم الإبداع ص ١٣٤ ، دار الفتح ، المنصورة ، ١٩٩٣ .

بالأحرى كذب فني ، مؤسس على محال ، مبني على تزوير المقال كما يقول علماء الصنعة[٨] ، وهذا يعني أن للشاعر مندوحة في تجاوز المنطق والواقع فهو لا ينقل الأشياء ، ولكنه يعيد صياغتها ، أو بالأحرى يبتدعها ، إذ يحررها من تناسبها المنطقي ، ودلالتها المعجمية ، ويكسبها دلالات جديدة ، لا تدرك بالعقل أو البصر ولا تلتزم المنطق والواقع ، وهو بهذا لا يسأل عما يفعل ، و لا يكلف بالتزام اللياقة العقلية بين المعنى الذهني ومعادله الفني ولا ينطو لغته على إشارة ذهانية تفصمه عن الواقع وتصرع أذن المتلقي بصدمة المفاجأة .

هذا ما وقع فيه ناجي حين واجهنا بلغة فصامية تجمع الشرك إلى التوحيد، وتجعل لله شركاء خلقوا كخلقه ، إذ يقرر في بيت واحد أنه اتخذ إلهه هواه ، ثم يطلب الصفح ، دون إقلاع عن التوثين ، ولكنّ مع استغراقه فيه على هذا النحو :

يارب صفحاً تلك آلهة الهوى فلها على عبادة وصلاة[٩]

لكن هذا بالضرورة لا يشي بفصامه لأنه هنا ((متبصر)) ، يعي ، ويدرك تماماً خطل توثينه ، فيضرع إلى ربه طلباً للعفو والمغفرة ، وهذا التبصر يجنبه سمة الفصامية ، لذا فإن خطله لا يتمثل في مطلعه الوثني هذا ولكن في مواجهتنا بهذا المطلع الذي يصدم سكوننا الفكري ، فلا يتجرعه العقل و لا يكاد يسيغه . ثم إنه لا يفتأ يتناقش ويتحاور، ويدرك سخف لجاجته ،

---

(٨) نفسه .

(٩) مجلة السيدات والرجال ، إبريل ١٩٩٢ ، العدد ٦ ، السنة ٦ ص ٣٦٧ ، قصيدة التوبة .

وخطل تناقضه إذ يواد من لا يواده ، و لا يبرح يراجع نفسه ويعاتبها: ((راجعت نفسي ، ويح نفسي ، لم عدنا ، ما احتفاظي ، أنظر ، فكر ، أفق)) ولهذا قلنا إن ثنائيته الوجدانية بالرغم من تناقضها لا تنطوي على فصام ، Shizophrenia ، لأن الفصامي متبلد العقل ، تنشطر فيه قدرة التبصر ويعيش حالة لا واعية لشخصية متوهمة فيها من غرابة الأطوار ، وشذوذ التصرفات ، ما يغمز العقل ، ويلمز الوعي والبصيرة بينما الشاعر هنا متبصر ، يعرف ويعي ويدرك خطل لجاجته ، فيؤنب نفسه كثيراً ويراجع قلبه عله يكف عن ولهه وانهواسه .

صحيح أن سلوكه كما يقول ينطوي على ((نهي طفل وإحساس صبي))[١٠] لم يبق فيه الهوى من رشد))[١١] بل كان((الحجاسمه وتدميره[١٢] وظل حتى شيخوخته يقفز الماضي إليه في لحظة فلا يفتأ مشدوداً إليه ، منفصماً عن حاضره ، لا يعرف نساوة الماضي ، ولا يستطيع التخلص من ركام الذاكرة متهماً ((بعقم الفكر))[١٣] من ينسي ماضيه إلا أنه مع هذا ((متبصر)) بمحنته العاطفية ، يفكر ويقدر ، ويعي ، ويدرك ، ويجري كثيراً من العمليات العقلية ، فيبرر ويفلسف ، وسيتشكل ويخرج إشكالاته ، ثم يفترض ويستنتج ، ويحاول أن يتخلص من ركام الذاكرة ((جئت أنسى ، أحاول أنسى ، كيف أنسى))[١٤] . وهذه لغة صحيحة لا تصدر إلا عن عقلية

---

(١٠) ديوانه / ٣٦٦ / بقايا حلم .

(١١) ديوانه / ١٤٠ / في الظلام .

(١٢) ديوانه / ٢٦٧/ قلب راقصة .

(١٣) ديوانه /١٧٥ / رحلة .

(١٤) انظر ص ١٣٠ .

صحيحة ما دمنا نفهم الشعر على أنه إجهاض لباطن تكون اللغة أداته ، وقابلته ، وحاضنته التي تلقفه ، وترطب لجاجته .

وصحيح أن الشاعر كثيراً ما تغريه البيجمالونية[١٥] فيتوهم أنه نسيج وحده، أو من طينة غير طينة البشر وأن ((شعره وحي العبقرية ، وجلال الأبدية))[١٦] حتى وصل به هاجس العظمة Delusion إلى الحد الذي يجعل من الشعر مملكة ومن الشاعر مليكاً مخلداً لا يموت أبداً ((ويموت الناس إلا الشعراء))[١٧] . إلا أن هذا بالضرورة لا ينطوي على هوس Paranoia، كما أنه لا يحمل هاجساً نرجسياً ، فالهوسي ينشطر ذهنه ((في الواقع)) ويقتحم الحياة والأحياء اقتحام ذي جنة مأفون ، فهو حساس ((في المجتمع)) لكن بالرغم من حساسيته لا ينفصم عنه ، بل يلتصق به ، ويواجهه ، ليهاجمه، ويثور على علله ، ويقترب منه ، وينفتح عليه ليعرض عليه بنات فكره ، وهذا يخلق فيه بصيرة التشتت والانتشار على ذوات غيره ، ولكنه انتشار يمس حوافهم وسطوحهم ، ولا يدخل في أعماقهم ، فيظل يعيش في عالم الافتراض والتوهم ، ممعناً في إشباع ذاته بلذاذات الأنا ومرادفاتها الأسلوبية ، كالقصر والتفضيل والمبالغة ، والنفي والإثبات ، نفي ذواتهم أو تصغيرها ، وإثبات ذاته هو ، وتأكيدها ، والمبالغة في تكبيرها وقصر العظمة عليها كذلك الذي قال :

إلى الذين سمائي فوق عالمهم وفوق كل عظيم فوقهم قدمي[١٨]

---

(١٥) نسبة إلى pymalion النحات اليوناني القديم الذي تقول الأساطير إنه شغف حباً بتمثال نحته ، فأشفقت عليه فينوس وأسبغت على تمثاله الحياة لكي يتزوجه، انظر د / زكريا إبراهيم ، مشكلة الفن ص ١٦٧ ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

(١٦) ديوانه / ٣٥٧ / وراء الغمام .

(١٧) ديوانه / ٦٤ / تأبين الهوارى .

(١٨) الشاعر كامل أمين ، ديوانه ص .

من هنا يصبح الهوسي والنرجسي صنوان ، فكلاهما ينتشر على ذوات غيره ، ويمعن في إشباع ذاته بلذاذات الأنا ، وكلاهما مغموز في عقله بالتعاظم الواهم ولم يكن ناجي في شئ من هذا ، لأنه كان منسحباً إلى ذاته أبداً ، ممعناً في استجلائها بإحباطات الأنا ((قد حنت رأسي ، لم تعد لي كبرياء ، خفقت كبريائي))[١٩] ، كما أنه يخرج من دائرة الهوس ، لأن الهوسي إضافة إلى افتقاده البصيرة يسقط المجتمع من حسابه فهو إذ يقدم بنات قريحته لا ينتظر تقريظاً ولا يتشوف إلى قراءة صورته في وجوه غيره، فإن أطروه وأشادوا به ، فهذا بالنسبة له معاد مكرور ، أوتحصيل حاصل ، مفروغ منه ضرب لازب لأنه حقه عليهم ، وإلا فلا حرج عليه ولا تثريب فرأى من سواه ((محتقر في همته كشعرة في لمته))[٢٠] وما عليه إذا لم يفهم البقر[٢١] ، فإذا سئل : لماذا تقول ما لا يفهم كان جوابه ، ولماذا لا تفهم ما أقول[٢٢] فكل الناس دونه ذباب لذا لا يحبط ، إذا ما نقدوه أو كرهوا رضوانه ، لأنه واثق من شاعريته ، يفترض فيهم أصلاً الرضا والقبول ويرى أن شاعريته تخترق المتلقي ، وتسبر أغواره ، فتفتح فيه أذاناً صما ، وعيونا عميا ، وقلوبا غلفا ، تكفيه الإشارة واللمحة ، دون حاجة إلى التداعي أو التكرار ، أو تعشيق الفكرة بالمحسنات ، وتوسيعها بالشرح والحاشية .

أما الشاعر النرجسي فهو جائع أبدا إلى أن يطريه الآخرون ، ويرفعوه مكاناً علياً لأنه يرى ذاته في شعره فحين يعرضه عليهم ، فلكي يقرأ ذاته في

---

(١٩) انظر ص ١٦٩ .

(٢٠) المتنبي ، ديوانه ص .

(٢١) البحتري ، ديوانه ص .

(٢٢) إشارة إلى أبي تمام ، وانظر كتابنا مفهوم الإبداع ، ص .

عيونهم إذ يلقف إشارة مدح أو تقريظ ، وإلا حزن وأحبط عمله ، وافتقد الثقة في نفسه وشاعريته وأصيبب بالاكتئاب المفضي إلى العدوانية والانتحار العاطفي أو الفني ، لذا لا يفتأ يسترق السمع والبصر ويسألهم الرأي في شعره وينتظر النتائج ، وينتشي كلما تقبلوه بقبول حسن ، أي أنه معتل بتعطشه الدائم إلى تشوف صورته في عيونهم ، وسماع إشادتهم ودوي تصفيقهم وتهليلهم ، وأي نقد لشعره هو تجريح لذاته ، وجناية على روحه ومحنة لشاعريته ونفي لها من الحضور الذهني في ذواتهم . ولعل أول ما يشي باعتلاله تلك الازدواجية التي تطعن رؤيته حين يقدم الشيء ونقيضه ويلج في هذا التنازع العصابي الذي هو في الواقع تعويض عن حاجات أولية كفت ظاهرياً فقط ولم تمت أو تنس ، أو تلغ من باطنه ، وإنما استبدلت بحاجات ترمز إلى هذه الأوليات ، وعبثاً يحاول أن يزيل ركام الذاكرة ((أحاول أنسى، أحاول سلوة)) لأن ذاته الطفولية يظل فيها من الضعف ما يسمح بالتسلل إليها نكوصاً أو تثبيتاً ، من هنا تصبح نرجسيته نزوعاً إلى حب التملك الطفولي الذي يجعل من الحبيبة أما ، ومن رئيسه والداً ، ومن زملائه أخوة ، وهذا يخرجه من دائرة النرجسية التي تحب وتعذب إلى دائرة المازوكية التي تحب وتتعذب ، وتستمرئ الألم والعذاب .

لم يكن ناجي ذهانياً – نرجسياً أو هوسياً ، أو فصامياً – ما دام أنه متبصر بعلله يعي ويدرك ، ويفكر ، ويعقل ، أي يتميز بالفطنة والذكاء والنمو العقلي إذ يشير الاستقراء التاريخي لقدراته العقلية إلى حصوله على نسبة مرتفعة الذكاء في اختبار القدرات الذي نقوم الآن بإجرائه ، إذا كنا نفهم الذكاء على أنه "الحساسية للمشكلات والقدرة على التكيف[٢٣] ، فقد كان متميز

---

(٢٣) انظر سعد جلال ، المرجع في علم النفس ، المعارف ط ٢ ، ص ٣٩٢ ـ ٤١٣ .

النبوغ العقلي في جميع مراحله التعليمية ، وكانت لديه القدرة على الحفظ والتحصيل واكتساب المهارات ، والتفوق في الاختبارات العقلية والأدبية على السواء ، ففي المرحلة الابتدائية اشترك في مسابقة أدبية ، كان هو الفائز الأول[٢٤] ، وكانت المفاجأة جائزة أدبية هي مؤلفات تشارلز ديكنز ، ونظراً لنبوغه الأدبي قرر الالتحاق بالقسم الأدبي ، ولكن لم يكد يراه المعلم ، حتى توسم فيه النبوغ في الرياضيات ، فوجه اهتمامه إليها ، وغير التحاقه إلى القسم العلمي ، ولتقدمه ونبوغه دخل كلية الطب . وفي امتحان البكالوريا سأله الممتحن عما يحفظه لهملت ، فأخذ يلقي ويمثل ساعة كاملة ، بينما الناس في الخارج يتساءلون عن سر هذا الامتحان الطويل لطالب واحد ، وأخيراً نظر إليه الممتحن وقال : اذهب بارك اللّه فيك . وفي المرحلة الجامعية كان أيضاً متميز النبوغ ، وكانت مقدرته على التخيل تسبق دائماً قدرته على التعبير والتفكير ، دخل يوماً المشرحة لأداء الامتحان ، وجيئ له بجثة امرأة ماتت لتوها ، وسأله الممتحن الدكتور علي إبراهيم تشخيص المرض الذي ماتت به ، فارتبك ولم يحر جواباً ، فقال له : عيب يا ناجي . أنت شاعر ، أنظر إلى وجهها وعينيها . فراح الشاعر يتأمل وجه المرأة فإذا هو شاحب شحوباً جميلاً ، ثم راح يتأمل عينيها ، فإذا بهما حزن عميق ، وجاذبية يحوطها سياج من أهداب أطول من الأهداب المألوفة ، فقال الشاعر من فوره : لقد ماتت بالسل . وأجاب الأستاذ : برافو يا ناجي حسبي فيك هذا، ونجح بتفوق[٢٥])) .

---

(٢٤) مجلة نقابة الأطباء ، العدد ٩ / ٧ / ١٩٥١ .

(٢٥) نفسه .

واضح أن الإحساس عنصر أساسي في تكوينه العقلي ، ومدخله الأول إلى الفهم والتأمل ، فهو أولاً يحس ويشعر ثم من بعد ذلك يفكر ويعبر .

أما مقدرته على التكيف فقد تمثلت جلياً في المرحلة الثانوية إذ كانت قدراته الأدبية تعادل قدراته العلمية ، أو بالأحرى كانت القدرتان تسيران في خطين متوازيين تارة ومتداخلين أخرى ، فكان عليه أن يختار بين أمرين أحلاهما مر إذ كان نبوغه في الرياضيات يؤهله إلى القسم العلمي ، ولكن نزعته إلى الأدب كانت طاغية : ((لم يكن عندي فكرة من الناحية العلمية الرياضية ، ما أظلم القدر ، فقد شاء أن أكون طبيباً ، وليس بالطب من حرج، وإنما الحرج أن يكون الخيال مركباً في طبيعة إنسان ، فإذا القدر يواجهه بالواقع ويصدمه ، .... إنما الحرج أن تراه يلائم بين الضدين ، ويوفق بين النقيضين ، وأخيراً يلتفت فإذا نفسه أشلاء ، وإذا الذبالة تحترق والزيت ينضب ، وإذا معين القدرة أشرف على الزوال ، وإذا الجبار قد مزق أوصاله ذلك النضال العنيف ، بين الغرائز والقدر ، بين الميول والصروف ، بين الخيال والمادة ، بين الوهم والواقع ، بين الروح والجسد ، أخذت أدرس الطب على طريقة فنية ، فقد كنت أبتدع لرفاقي الصور ، وأخترع لهم ما يعينهم على الحفظ ، وظللت كذلك إلى الساعة التي أكتب فيها هذا (١٩٥١) أزاول الطب كأنه فن ، وأكتب الأدب كأنه علم ، أي أراعي فيه المنطق والتحديد والوضوح[٢٦])) .

---

(٢٦) نفسه .